وثقلهما مع الطوق الذي يحيط بهما نحو عشرة قناطير وبلغ ثمنهما ثلاثة عشر الف جنيه. وقد وصفنا هذه النظارة غير مرة والذي يعنينا من ذكرها الآن ان رجلاً جمع ثروتهُ بالشركات والمضاربات عرف كيف يكتسب حسن الاحدوثة بايفائهِ اموالاً خسرها في حداثتهِ لا باسراف ولا بخطإ بل بقضاء وقدَر. وعرف ايضاً كيف ينفق على ما يفوق بهِ كل من تقدَّمهُ حتى الممالك الكبيرة لان نظارتهُ لا تزال الكبرى من نوعها حتى الآن

ناموس النشوء في تقدم العمران

(١)

العلم باصولهِ وفروعهِ يشبه صرحاً فخيم البنيان مشيَّدَ الاركان رفيعَ الطباق مديدَ الرواق وُضع اساسهُ منذ نشأة الانسان وسيزداد اتساعاً ويعلو شأناً مع تقدم العمران. ولكلٍّ من الوف الخلق الذين اشتركوا في اقامة بنائهِ وتوسيع رحابهِ واعلاء قبابهِ فضل يذكر على قدر الذكاء في الوضع والهمَّة في العمل والأثر في النفع شأن المهندسين والفعلة والبنائين والمزينين على اختلاف العمل والشرف في الرتب والاقدار. والذين تحق لهم الميزة في الفضل والفخر بين مؤسسي العلم ورافعي جدرانهِ هم الذين خطّطوا رسومهُ وحدَّدوا طبقاتهِ وفصَّلوا غرفهُ وقسموا ابوابهُ ولكن الشرف الاعلى والقدر الأغلى لاولئك الذين ادركوا القصدَ في مجموعهِ وعيَّنوا النِّسب والعلائق بين اقسامهِ واكتشفوا وحدة القياس والناموس في نظامهِ

فمهما يكن من هوى النفوس الزكيَّة في الاحاطة بمفردات الحقائق واستجلاء غوامضها من طريق البحث والاستقصاء. ومهما اشتدَّ اعجاب العقل بهم جمَّاع المعارف وخزنتها وضبَّاط شواردها ومقيِّدي اوابدها فان ارتياح الخواطر الى نظم فرائدها في قلادة العلم القانوني اشدُّ وردّ شتات الفروع الى اصول قليلة اوقع في النفس واعلق في الذهن وابقى في خزانة المحفوظ

ولا جرم ان ناموس النشوء العام المحيط بما عُرف من شرائع الكون يتمشَّى على ارتقاء العلوم ونشئها تدرُّجاً من بسائط اصلية الى مركَّبات فرعيَّة فيتولَّد من امهات تلك العلوم انواعٌ وصنوف بارتقاء العمران كما تتولَّد القبائل من الاجداد وتنسل الاباء الاولاد. تتجلى هذه الحقيقة لكلِّ ذي بصيرة من طلبة هذا العصر على الخصوص بعد ان درس العلم المتسلسل فأيقن ان حلقاتهِ آخذة بعضها برقاب بعض يعزو كلُّ مولودٍ منها الى والدهِ ويحفظ لها جميعاً سلسلة الانساب

وفي جملة تلك العلوم الجليلة الغايات الجلية الآثار علم التاريخ اساس علم الاجتماع . كان هذا العلم "وما زال عند سواد الطلاب" مقصوراً على تدوين الوقائع وجمع الاخبار جليلها وحقيرها من تقلب دول وتبدل شؤون وصعود وهبوط حتى تقلبت فيهِ انظار اهل الفلسفة فانشأوا منهُ (فلسفة التاريخ) . ثم لما فُيض لابطال العلم الحديث اكتشاف ناموس النشوء الكوني تبين لهم ان الشرائع التي جرت عليها الاحياء في اطوار نشئها هي نفس السنن العامة التي فعلت فعلها في تقدم العمران مما لم يحلم بهِ واضع التاريخ ولا جال في خيال مدوّن الاخبار فكأنهُ قد تكوّن لهذا العلم ثلاث دوائر متداخلة . اولها تدوين الوقائع . ثانيها تعليلها الاجتماعي . ثالثها وهو المحيط بهاتين الدائرتين فلسفة نشوئها وارتقائها . ومن وراء هذه كلها دائرة رابعة يقال لها دائرة (ما وراء الطبيعة) عند علماء الدين وهي دائرة المقاصد الالهية السرية التي يديرها مهندس الكون الاعلى علة العلل قطب دائرة الوجود ورب الازل

ولذا فقد اصبح الاقتصار في درس التاريخ على درس وقائعهِ واستيعاب اساطيرهِ مجردةً على ارتباطها بذلك الناموس العام من ضرائب المدارس وعبئاً ثقيلاً على الاذهان كما اوضح مبنسر في فلسفة التربية والتهذيب باقطع برهان . بل ان علم العمران نفسهُ اذا حصر نطاقهُ في النظر الى الاسباب الثانوية لتقدم الامم وانحطاطها من الوجوه الطبيعية والادبية على ما هو معروف في فلسفة التاريخ البسيطة ولم يتجاوز البحث فيهِ الى ناموس الحياة العام بقي ضيق النطاق قريب حدود المجال . نعم لا ينكر ان تمثيل نشأة التمدن القديم والحديث لمرآة النظر بعالم العمرانية القريبة من دواعي اللذة والانشراح كما جاء (لاحد خدام الانسانية) في مقالة "نشأة اوربا" الحديثة في مقتطف هذا العام الا ان اظهارها ناشئة نامية متدرجة لناموس النشوء كالجسم الحي ادعى الى ارتياح النظر البعيد وارضى لنفس الباحث الدقيق

ولما كان نصيب العربية من هذين العلمين قاصراً في ما نعلم لهذا العهد على اسفار معدودة كتاريخ التمدن الاوربي للفيلسوف كيزو ومقدمة ابن خلدون في علم العمران وهما لم تتعدا ايحاثهما حدود الاسباب القريبة في تقدم التمدن والعمران لم يكن للمتشوّف الى ما وراء ذلك غنى من الاجنبية يستقي من بحارها ويهتدي بمنارها شأن الشرقيين اليوم في كل العلوم حتى يبلغ الشرق من الارتقاء زمانهُ في نظر الفيلسوف او حتى يثني الزمان عنانهُ على قول الحالم المتخيّل والمتململ الاسيف

(٣)

اما غرضنا في هذه المقالة فهو تحصيل ما انتهى اليهِ بحث علماء الاجتماع البشري من اشتراك

علم العمران مع علم الحياة ببادىء النشوء والارتقاء وادراج العلمين في سلك واحد من اسباب التقدم والنماء لما بينهما من الشبه ونسبة الاتصال مع الفارق الحقيقي معتمدين في تقرير حقائقه على عمدة من اكابر علم التاريخ والعمران اهل النشوء الالهي عداة فلسفة الماديين والرخصومهم زحاماً واقطعهم حساماً في ذلك الميدان

لا يخفى ان مرجع النشوء في الاحياء هو التغيرات الحاصلة لها باختلاف احوال المحيط الخارجية مع الميل الداخلي فيها الى موافقة تلك الاحوال بحيث تحفظ موازنة التقدم بين الامرين

ولما كانت تلك التغيرات في محط نظر الباحث لم يكن له بُدٌّ من اعتماد الكلي منها واغفال الجزئي ليتسهّل له استخراج القواعد الكلية شأن تقرير الاحكام الاصلية في كل العلوم . وهذا هو نفس الحكم الذي يجب ان يعتمده علماء الاجتماع بتقرير احكامه الكلية اريد به التعويل على التغيرات الكلية الاصلية واطراح الجزئية الفرعية في احداث التاريخ . فاذا نظرنا الى التغيرات الاجتماعية الكلية في مبحثنا هذا رأينا فيها ميلاً كليًّا عامًّا الى التقدم من اسوإ الحالات الى احسنها اي ان وجهتها التقدم العام ابدًا

فليس المراد ان التاريخ البشري كان شأنهُ التقدم في كلّ من جزئيات وقائعه في انحاء المعمور وفي جميع الازمان فانك ترى في عصور مختلفة وبلدان متنوعة مظهر التأخر جليًّا ماثلاً للابصار ولذلك فان كثيرين من علماء القرن الثامن عشر لاغفالهم الشرط الآنف الذكر في تقرير الاحكام الكلية سبق لهم الوهم فقالوا ان مبدأ التقدم ضروري الشمول والاطلاق في كل ادوار التاريخ كما غلب الوهم يومًا على الشهير لامارك في حسبانه هذا التقدم ضروريًّا مطلقًا في نشوء العضويّات . وقد بلغ الخطأ من بعض مَن لم يروا مهربًا من ثبوت التأخر في بعض احوال الامم أن زعموا ان للجنس البشري جدّين احدهما فُطر فيه الميل الى التقدم والآخر طبع على التأخر . فكان شأنهم في هذا الاعم شأن من رأى الطول في قامات بعض البشر والقصر في غيرهم فحسب النوع الانساني نوعين في البنية الجسدية احدهما يميل الى طول القامة والآخر الى قصرها . اوشأن من قال بقياس التمثيل " الشيخوخة حال طبيعية عامة في الانسان لان فيه ميلاً طبيعيًّا اليها " ومنشأ الخطإ في ذلك الوهم كله غفلتهم عن هذا الحكم وهو ان للتقدم شروطاً قد لا تتوفّر في كل ما هو موضوع للتقدم . ولقد فاتهم ان ادراك الشاب طور الشيخوخة وبلوغ الامة درجة التمدن يتوقفان على احوال المحيط الى حدّ بعيد

ومحصل ما يقال في باب تغيير الشؤون الاجتماعية ان التقدم فيها قاعدة كلية وان دخل تحتها شيء من شواذ التأخر وتخللها حال من احوال السكون وان الارتقاء العمراني على الجملة سنّة التاريخ

ولذلك فمتى عُرفت شروط التقدُّم عُرفت اسباب التأخُّر على السواء . اي اذا اثبتنا تقدماً لقبيلة من قبائل الارض أبنّا تأخُّر ما يعاكسهُ في الاحوال الداخليَّة والخارجيَّة بلا اشكال على حدّ ما ثبت في علم العضويَّات نريد بذلك ان ما يُعلل ارتقاء بعض انواعها يعلل تأخر البعض الآخر او وقوفها او انقراضها بفقد اسباب الارتقاء

وعليهِ فقد احسن الفيلسوف كونت بحصرهِ تاريخ الاجتماع في مجرى التمدن مبتدئاً من شواطئ البحر المتوسط الشرقي حتى انتهى ممتدًّا الى اوربا وقسم من اميركا كأنهُ يقول ان اسباب التأخر تظهر من اسباب التقدُّم فاختصر الطريق وابدع في التحقيق وان مقياس الارتقاء مقياس المبسوط ابدًا شأن التوازن في كفتي ميزان

الَّا انا قبل الشروع في بيان المطلب الاقصى في هذا البحث اللذيذ لا ندحة لنا عن مرّ النظر على اركان التقدُّم الاجتماعي ومقوماتهِ فنقول

(٣)

ان لهذا التقدم ركنين اوّلين هما القبيل والمحيط . اما محيط القبيل فهو ما احاط باحوالهِ وشؤونهِ الاجتماعية القريبة والبعيدة ممَّا يؤثر فيهِ على وجهٍ مَّا حتى يلائمهُ ويرتقي اليهِ . وهنا لا بدَّ لنا من التنبيه على ان ليس المحيط ما اقتصر على اقليم الامة الطبيعي وتربتها وحيوانها ونباتها وموقعها الجغرافي ونسبتها الى سلاسل الجبال وطول ساحلها البحري وما شاكل ذلك بل هو ما شمل ايضاً حالة الامة العقلية والادبية كبلوغ افكارها وعوائدها ومنشإها وتاريخها وتقاليدها مع علاقتها بمن يجاورها من الامم الداخلية ويخالطها من الخارجية وما يؤثر فيها من مجموع هذه الاحوال . وعلى ذلك فقد يختلف محيط القبيلة ضيقاً وسعةً مثال الاول محيط قبيلة الاسكيمو فانهُ ضيق الدائرة لانحصارهِ في موقعها الطبيعي في لابرادور وعلاقتها بقبائل قليلة مجاورة لها واختلاطها بعدد يسير من التجار والسيَّاح وشيءٍ زهيد من تقليداتها الموروثة عن اسلافها . وهذا كلُّ ما يؤثر في احوال هذه القبيلة الضعيفة الحال

ومثال المحيط الثاني محيط الولايات المتحدة فانهُ يحيط بقارة اميركا الشماليَّة ويشمل جميع الامم المعاصرة المخالطة لها من كل ما انتهى اليها من مبلغ التقاليد والعادات والافكار من سياسيَّةٍ وادبية وعلمية ودينية ويشترك فيهِ معها سائر الامم التي ورثت التمدن عن المملكة الرومانية . واما سبب اتساع دائرة المحيط الاجتماعي ووفرة ما يحويهِ من مختلف الامور فسيظهر في ما يلي من البيان

ويحسن بنا في مساق هذا الكلام على تعريف المحيط ان نُشير الى ما عُلق في اذهان بعض

الكتبة من زعمهم ان الاسباب الطبيعية (او بقاع الامم) هي كل المؤثرات الاجتماعية او اقواها

وفي ابطال هذا الزعم قال اهل التحقيق ان ليس لهذا الوهم من علة سوى الغفلة عن نسبة علم الاجتماع الى الاصل الذي تفرع هو عنهُ مع الفارق المُضاف اليهِ . فكما ان علم الاخلاق (او النفس) هو فرع من علم الحياة مع زيادة اختصاصهِ بالبحث عن العقل ونسبتهِ الى المحيط كذلك علم الاجتماع فرع عن علم (الاخلاق) مع ما انضاف اليهِ من خاصة البحث عن مجموع العقول ونسبة بعضها الى البعض والى محيطها المشترك ايضاً

وكما ان مساعي علماء الحياة وراء اكتشاف ناموس عام لترقي العضويات ذهبت ضياعاً لانحصارها في نسبة الحي الى محيطهِ الطبيعي فقط ولم يفوزوا بضالتهم المنشودة حتى قطن دارون الى نسب الاحياء بعضها الى بعض كذلك يكون نصيب علماء الاجتماع من القصور والتقصير ما دامت ابحاثهم منحصرةً في نسبة الامة الى موقعها الطبيعي ضاربين الحجاب على نسبها الضرورية الى غيرها من الامم ومؤثراتها الفعلية والادبية

ولا يُنكر انهُ كان لطبيعة الاقليم التأثير البالغ في ادوار التمدن الاولى . فمما لا شبهة فيهِ ان التمدن نشأ اولاً في بقعةٍ لم يكن تحصيل الطعام والمأوى فيها يتطلَّب فرط الجهد وكان حال الطبيعة من الخصب والجدب على اعتدال . فلم يكن منشأ التمدن في مفاوز سيبيريا الجرداء ولا سهول البرازيل بقاع الخصب والنماء بل كان في مثل ارض مصر وما بين النهرين حيث لا الجدب ينهك قوى الانسان او يلقيهِ في مخالب الجوع ولا فرط الخصب يحملهُ على فتور الهمة والاهمال

ولا نزاع ايضاً في ان امة اليونان مثلاً تعزو كثيراً من قوتها المدنية التاريخية الى موطنها على ساحل البحر وان بحر الروم مقدَّس الذكر عند درَّاس التاريخ اذ هو الذي حملت امواجهُ سفن التجارة بين ذهاب واياب فتمكنت اسباب المواصلات واشتدَّت اواخي الاشتراك الاجتماعي بين الامم على حد ما يُشاهد اليوم في شعوب اوروبا الساحلية . ولكن مع ذلك كلهِ فلمَّا درج التمدُّن من مهد الطفولة وجعل يرقى في معارج الفتوة والشباب لم يكن لهُ في اشتداد عزيمتهِ غنًى عن اقتباس ما انتهى اليهِ من الاختبار المشترك وما ورثهُ عن سالف الاجيال

ومن جوامع الكلم المأثورة عن الفيلسوف كونت ما جاء لهُ في هذا الباب وهو قولهُ " ان مملكة الاموات تزداد سطوةً وسيادةً على مملكة الاحياء على تراخي العصور " وقال العمراني فسك الاميركاني الشهير " انَّا اذا رمنا استقصاء قدمنا والتحقيق في سلسلة محيطنا العمراني لم نرَ محيدًا عن التقهقر الى حلقات التاريخ المتعلق بنا نحن الاميركان . فهي ترتفع الى نصرة اليونان

على الفرس في واقعة ماراثون وفوز قيصر بأمة الغول وتأسيس النصرانية وهزيمة اتيلا في كالون ونزول النورمانديين الى انكلترا وحروب الصليبيين واصلاح لوثيروس . . . مع ارتقاء العلم الرياضي منذ زمن ارخميدس الى فاراي الخ الخ . فان كل ذلك كان ولا يزال اكثر تأثيراً في احوالنا الاجتماعية من الجبال الصخرية (غربي اميركا الشمالية) والبحيرات العظمى المشهورة (شمالي الولايات المتحدة في القسم الشرقي منها) وخليج المكسيك "

واذا سألنا سبباً لبقاء امة الاسبان مثلاً الى هذه الساعة امة الخرافة والتعصُّب لم نجد تعرض بلادها الى الزلازل الاَّ سبباً زهيداً بالقياس الى كونها ساحة النزاع في امور الدين "

وعلى ذكر امة الاسبان والزلازل يخطر لنا في هذا الشأن حديث جلل يتعلق بتمدن العرب نظنهُ تمديد الموقع في اذهان قرَّاء المقتطف الاغرّ من اهل الغيرة على هذه الامة الجليلة الشأن في تاريخ التمدن والعمران

ذلك ان بعض الكتبة الغربيين ذوي المكانة في فلسفة التاريخ اخطأ المرمى في تعليل تمدُّن العرب فقال " ان ما كان للعرب من حال الخشونة والجاهلية المعلومة انما ينسب لوجودهم في بقعةٍ قاحلةٍ من الارض فاورثهم ضعف الحال تلك البداوة وعجف المال ذلك الجهل العريق والجهل ثمر الفقر حيثما كان. ولكنهم (اي العرب) لما فتحوا بلاد فارس في القرن السابع (للميلاد) وتملكوا اسبانيا في الثامن والنجاب بل معظم بلاد الهند ما كادوا يحطون رحالهم في هذه الممالك الجديدة حتى بدت علائم التبدل والانقلاب في اخلاقهم. فبعد ان كانوا في جزيرة العرب قبائل رحلاً ورعاةً همالاً اشبه بالانعام السائمة يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء ولا يعلون عن ابواب الرزق سوى شن الغارات اصبحوا في فتوحاتهم وقد وُطِّئت لهم اكناف المجد المدني من تخامة الملك وبهجة الدنيا والبسط في العلم والانفراد بالعز حتى عمروا الامصار على بناء يحير الالباب ويأخذ بالابصار واقاموا المدارس والمساجد وحشدوا اسفار السلف الى مكاتبهم من جميع الاقطار مما تكتحل العين بمشاهدة آثاره ولا يحي ذكر مخاره "

فني الردّ على موضع الاستشهاد بهذا القول لا يحتاج الاَّ الى سؤالين . الاول اذا كان العرب انما ادركوا ذاك التمدن بتبديل بقيعهم ببلاد الاندلس وفارس والهند فلمَ لم يتأتَّ ذلك للامة التي غادرت بواديها وحلَّت احسن موقع جغرافي وابهى مملكةٍ في الغنى والمجد بل ظلَّت بعد قرونٍ عديدة تدافع غارات التمدن بسلاح الخشونة والجهل ؟ والسؤال الثاني كيف قيّض للعرب ان تهجر صحاريها وقفارها وتنتج البلاد الواقعة بين جبال البيرنس ونهر الكنج فهل كان ذلك الانقلاب جيولوجياً اونشأ عن تغير في طبيعة الاقليم والتربة ؟ انّا لا نحتاج في

امبراطور اليابان

الجواب على هذين السؤالين الى تعمق في التاريخ فقد يجيب عليهما ابسط طلّابهِ وهو انهُ لم يتسنَّ للعرب بلوغ تلك الحال المدنيَّة الاَّ بعد ان تبدلت حالهم الفكريَّة فدخل على نفوسهم آراء جديدة في الحياة والواجبات ومطالب الآخرة بدعوة الاسلام وعلى الجملة فان المؤثر الاخلاقي او النفسي لا الطبيعي هو علة تمدُّن اهل الاسلام متري قندلفت

نبأ من اليابان

امبراطور اليابان ورجالها

لقد اتَّضح من الفصول السابقة ان ارتقاء اليابان امر حقيقي لا ريب فيهِ وانهُ شامل كل مقوّمات حياتها كافَّة فلاحتها وصناعتها وتجارتها وامارتها حتى صارت تباري الممالك الاوربيَّة في بناء اكبر البواخر كما تباريها في عمل ادق المصنوعات ولم تقتصر على ما كان معروفاً عند اهاليها بل اقتبست احدث الصنائع الاوربية حتى عمل المقاييس الهندسية والآلات الكهربائية وبارت اوربا ايضاً في اتساع تجارتها وفي دستورها ونظام جنديتها وبحريتها

ولا بدَّ من ان يسأل مَن يحبُّ الاطلاع على ما يرفع الامم وما يخفضها وما يقوّيها وما يضعفها عن اسباب هذا النهوض وعلل هذا الارتقاء . وقد اجاب المستر ستد عن ذلك بقولهِ ان السبب الاكبر هو امبراطور اليابان فان لهُ اليد الطولى في ارتقاء بلادهِ ولو لم يكن ذلك ظاهراً في كل شيء . فان ديانة اليابان توجب على اهاليها الخضوع التام لهُ . ولكلمتهِ شأن عندهم اكثر مما لكل السنن والشرائع وهو فوق كل قانون ودستور ويتَّضح ذلك من المثال التالي وهو انهُ منذ سنتين عُرض على مجلس الاعيان مشروع قانون الضرائب فقاومهُ اربعة اخماس الاعضاء وحينئذٍ وردت رسالة من الملك يقول فيها انهُ يود ان يصادقوا على المشروع فصادقوا عليهِ كلهم بالاجماع

ولا يخفى ان اعطاء الملك سلطة مطلقة الى هذا الحد يضر البلاد ضرراً كبيراً اذا كان الملك جاهلاً سيء السياسة او ظالماً فاسد الرأي ولكنهُ ينفعها نفعاً عظيماً اذا كان الملك حكيماً برًّا برعيتهِ . وامبراطور اليابان من هذا النوع الاخير وهو في مقدمة رجالهِ الساعين في ترقية بلادهم والفضل الاول لهُ في كل ما اصابتهُ البلاد من النجاح

ورهبة هذا الامبراطور متملكة من قلوب شعبهِ حتى لا يجسر احد ان يقف امامهُ وبكلمةٍ الاَّ ويتلعثم لسانهُ ما عدا اربعة من رجالهِ مع انهُ لا يعامل احداً بالقسوة والجبروت